الإيمان
بالقضاء والقدر
على طريقة أهل السنة والأثر

مقدمة

إلى العلماء المحترمين، وإلى الشاب المثقفين، وإلى الناس أجمعين.

أما بعد: فإن هذه الرسالة النفيسة تبحث عن مسألة عويصة قد اضطرب الناس في حقيقتها والأجوبة عليها، وهي مسألة القدر وما وقع فيها من اضطراب البشر، وأن العلم الصحيح المستند إلى النصوص النقلية والعقلية هو أعظم نافع وأقوى رادع لما يعرض للإنسان في حياته من فتن الشبهات والتشكيكات التي يثيرها أهل الجدل من الملاحدة والقدرية مما يزيغ الأذهان ويوقع في الافتتان وخاصة العوام وضعفة العقول والأفهام، بل قد تزيغ المسلم عن معتقده الصحيح ثم تقوده إلى الإلحاد والتعطيل والزيغ عن سواء السبيل.

فمتى لم يرسخ في قلب الإنسان معرفة الحق بدليله، ويميز بين صحيحه وعليله؛ مما يتعلق بعقائد الدين وما يدعمها من الحجج والبراهين وإلا فإنه سيصاب بالارتباك والخجل وعقدة الوجوم والوجل عند أول ملاقاة لأهل الجدل، فيبقى صريعاً لجهلهم، قد استحوذ عليه باطلهم لعدم وجود ما يصول به ويجول من علم اليقين والبصيرة في الدين؛ إذ العلم الصحيح سلاح الدنيا والدين وصلاح المخلوقين، به تستنير البصيرة، وتقوى الحجة.

وإن مما ندركه على بعض الشباب المثقفين المتخرجين وعلى بعض علماء المسلمين كون أحدهم متى ظفر برسالة هامة تكشف له الإشكالات، وتزيل عن قلبه الشكوك والشبهات، وهي صغيرة الحجم، غزيرة العلم، بحيث يستطيع دراستها في مجلس واحد بدون مشقة ولا عناء، فيكون حظه منها هو النظر منه إلى عنوانها، وعسى أن ينشط لدراسة الوجه الأول والثاني منها، ثم يصفق بأجنحتها بعضها على بعض ثم يضعها في سلة المهملات، وذاك آخر العهد بها، فيعود خهد صاحبها

ضياعاً، وعلمه عيالاً، أشبه من يزف امرأة حسناء إلى عنّين، أو كالمطر الوابل في الأرض السبخة؛ لكونه لا قيمة للعلم عنده.

فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المؤلف

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

أما بعد: فإن القضاء والقدر قد ضل فيه خلق من البشر حيث حملوه على غير المعنى المراد منه فتفرقوا فيه شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون.

فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وقد صار من سيما الملاحدة أهل الجدل، شدة اللحاح في السؤال عن القضاء والقدر، لا لأجل الاستفادة والاستفسار عن الحق، وإنما هو لأجل التضليل به والتشكيك فيه، فعندما تلقى أحدهم فإنه يبادرك بالسؤال عن القدر لكونهم وجدوا فيه - ولظنهم - نوعاً من العذر لهم في إسقاط الواجبات وارتكاب المنكرات وشرب المسكرات. حتى إذا أمرت أحدهم بالخير أو نهيته عن الشر قال: هذا أمر كتبه الله علي. يريدون أن يلقوا جريمتهم على كاهل القضاء والقدر؛ لاعتقادهم أن القضاء والقدر بمثابة الغل في أعناقهم، والقيد في أرجلهم، وحجتهم به داحضة عند ربهم. لأنهم على طريقة المجبرة فما أذنب القضاء والقدر ولكنهم المذنبون ﴿**يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ**﴾[1].

وقد يتجارى بهم الهوى والتوسع في فنون الفجور فيقولون: كيف يكتب الرب علينا الشقاء ثم يعذبنا بالنار؟.

وسمع من بعض الملاحدة قوله: كيف يخلق الله إبليس وسلطه على الناس ثم يعذب من أطاعه بالنار والذنب ذنب الذي خلق إبليس؟ تعالى الله عن قولهم علواً

---

(١) سورة الأنفال: ٦ .

كبيراً. وهؤلاء يسميهم العلماء مجوس هذه الأمة لأنهم على طرقة المجبرة يرون أنهم مجبورون على فعل الجرائم بطرق القضاء والقدر.

قال الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله العبد وقهره على فعل ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمون، وإنما معناه الإخبار بسبق علم الله بما يكون من أكساب العبد وصدورها عن اختيار منه[1].

والله سبحانه قد أعذر وأنذر لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فأنزل القرآن فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، يفرق الله فيه بين طرق أهل الكفر والإيمان والهدى والضلال، وأرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. يقول الله: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ**﴾[2] وأنزل الله على سبيل الإعذار والإنذار: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾[3].

والله سبحانه خلق الإنسان وعلمه البيان، وخلق له السمع والبصر والعقل ليتمكن بذلك من فعل ما ينفعه والتباعد عما يضره في أمر دنياه وآخرته؛ إذ هو مختار في عمله ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[4] ثم إن الله سبحانه خلق الإنسان وخلق الشيطان ليبلوكم أيكم أحسن عملاً كما خلق الجنة جزاء وكرامة لمن أطاعه واتقاه، وخلق النار عقاباً وعذاباً لمن أطاع الشيطان. والناس بين مؤمن تقي وفاجر شقي ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[5].

---

(١) معالم السنن للخطابي (٢٩٧/٤) بشيء من التصرف.
(٢) سورة النحل: ٣٦.
(٣) سورة الأعراف: ٢٧.
(٤) سورة فصلت: ٤٦.
(٥) سورة الإنسان: ٣.

وأنزل الله ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] فأخبر الله سبحانه أن اعتناقهم للكفر ودخولهم النار حصل عليهم بسبب كسبهم واختيارهم لأنفسهم حيث اختاروا الكفر على الإيمان، واستحبوا العمى على الهدى، كما قيل لا إدانة إلا بعد التحقيق.

وقد حقق سبحانه ذلك بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ من رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[3] فعلى الله قصد السبيل، وعلى العبد العمل.

وحتى أن إبليس يتبرأ يوم القيامة من الذين اتبعوه وأشركوا به ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي من قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

فأفصح إبليس عن نفسه بأنه لم يخرج إلى الناس بمدافع وبنادق يحدوهم بها بطريق الجبر إلى طاعته، وإنما غاية كيده وعمله هو الوسوسة في الصدر فقط، فلا حجة لهم في الاعتذار به.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[5].

*****

(١) سورة يس: ٦٠ - ٦٥ .
(٢) سورة الأنعام: ١٠٤ .
(٣) سورة الإنسان: ٣ .
(٤) سورة إبراهيم: ٢٢ .
(٥) سورة الكهف: ٢٩ .

حقيقة القدر

إن الكلام في القضاء والقدر قد صار مثاراً للجدل بين المتقدمين والمتأخرين حتى افترقوا فيه على مذاهب شتى كل حزب بما لديهم فرحون، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ونحن وإن قلنا إن القدر يرجع إلى تقدير الله للأشياء بنظام وإتقان، وأنه يرجع إلى سبق علم الله بالأشياء قبل وقوعها، وأنه يعلم ما كان وما سيكون كيف يكون، فكل هذه من الصفات الداخلة في قدر الله.

والقدر هو من عالم الغيب الذي ينبغي للإنسان أن لا يشغل ذهنه بالتفكير في كنهه.

وكان الصحابة لا يخوضون في موضوع القضاء والقدر لكونه من عالم الغيب ومن الأمور الخفية عن العيان كما قال الشاعر زهير:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر

وحسب الشخص أن يؤمن بكل ما أخبر الله به من صنع خلقه وسبق علمه بكل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وفعال لما يريد. ولما سئل الإمام أحمد عن القدر: "أجاب قائلاً "القدر قدرة الرحمن" وقد أخذها العلامة ابن القيم فقال:

فحقيقة القدر الذي حار الورى في شأنه هو قدرة الرحمن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد لما حكاه عن الرضى الربان

له قال الإمام شفى القلوب بلفظة ذات اختصار وهي ذات بيان

*****

القدر هو قدرة الرحمن

وهو أن تعلم وتؤمن بأن الله على كل شيء قدير يعلم ما كان وما سيكون كيف يكون. ولما سئل الإمام أحمد عن القدر أجاب قائلاً: "القدر هو قدرة الرحمن" قال ابن عقيل: إن الإمام أحمد شفى القلوب بلفظة مختصرة وهي ذات بيان وشمول معان.

قال الراغب: "القدر يدل على القدرة وعلى المقدور" وفي فتح الباري عن أبي المظفر السمعاني قال: " إن معرفة القضاء والقدر تتوقف على الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه عليهما ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العليل" انتهى(١).

وصدق أبو المظفر فإن دلائل القضاء والقدر يجب أن تؤخذ من الكتاب والسنة إذ هما الدليل الكافي والدواء الشافي مع قطع النظر عن كلام بعض المفسرين في معنى القضاء والقدر؛ إذ هو كلام بشر ينقل بعضهم عن بعض القول به فيشتهر وينتشر وربما كان غير صحيح.

إن القدر يدل بمنطوقه ومفهومه على قدرة الرب سبحانه وعلى تقديره للأشياء بنظام وإتقان وإحكام. وكل من تتبع نصوص القرآن يجدها تدور على هذا البيان. فالقضاء في سائر استعمالاته هو بمعنى الفراغ من الشيء.

فالقضاء والقدر مناهما: أن الله سبحانه قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير متقنة مضبوطة محكومة بسنن لا تقبل التغيير ولا التبديل، وأنه قد فرغ من ذلك فراغاً لا يعقبه تعديل ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص، صنع الله الذي أتقن كل شيء.

يقول الله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(٢) أي جعله ذا مقادير منظمة متقنة محكمة. كقوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(٣).

---

(١) انظر: فتح الباري كتاب القدر .
(٢) سورة الفرقان: ٢ .
(٣) سورة الرعد: ٨ .

ومنه قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1] أي بتقدير ونظام متقن، كل شيء بحسبه فلم يخلق شيئاً بطريق الصدفة ولا الطبيعة. قال ابن جرير في التفسير: "إنا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه، وبعض المفسرين يغلطون في تفسير هذه الآية حيث يحملون تفسيرها على القضاء والقدر ثم يتوسعون في سياق الآثار الواردة في القضاء والقدر كأن الآية سيقت لذلك وهو خطأ فإنه لا تعلق للآية بالقضاء والقدر الذي يعنونه ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾[2] أي بقدر حاجة الناس ليس بالكثير المنهمر المستمر فيهلك حرثهم ومواشيهم ولا قطعة واحدة فيضر البنيان وإنما ينزله رشاشاً قطعاً على حسب ما يخرج من فتحات المنخل بحيث يروي الأرض وتسيل منه الأودية لأنه لو نزل كتلة واحدة لضر الأنام والأنعام والحرث ولزال منه الانتفاع المطلوب، نظيره قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[3].

وقوله: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) هو نظير قوله: (إنا كل شيء خلقناه بقدر) لفظاً ومعنى وهو يرجع إلى قوله: (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) أي جعله ذا مقادير متناسبة ثابتة ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4].

نظير قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[5] أي جعلناه ذا مقادير ينزل كل ليلة منزلة منها لا يتخطاها ولا يقصر عنها، ومنه قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾[6] أي على موعد قدرنا مجيئك فيه، وذلك أن الله وعده بأن يكلمه بعد أربعين ليلة قال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[7].

---

(١) سورة القمر: ٤٩ .
(٢) سورة المؤمنون: ١٨ .
(٣) سورة الشورى: ٢٧ .
(٤) سورة النمل: ٨٨ .
(٥) سورة يس: ٣٩ .
(٦) سورة طه: ٤٠ .
(٧) الأعراف: ١٤٢ .

ومثله قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾[1] وقرئ قدّرنا - بالتشديد - أي قدرنا ذلك تقديراً متقناً فنعم القادرون، وقرئ بالتخفيف من القدرة أي قدرنا على خلقه وتصويره في أحسن صورة فنعم القادرون.

فهذا حقيقة القدر المذكور في القرآن ومنه قول الشاعر:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

وأما القضاء فإنه الفراغ من صنع هذه المخلوقات وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2] فذكر القضاء في قوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ - كما ذكر القدر في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ - فهذا معنى حقيقة القضاء والقدر، وأنه خلق الأشياء بنظام وإتقان ثابت لا يتغير بتغير الزمان كل شيء بحسبه، وهذا معنى ما في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: "**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض**" وهذه الكتابة هي عبارة عن العلم القائم بذات الله، وهو معنى قول أحدنا: قدَّر الله وما شاء فعل، قدرة الله أي وسابق علم الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن جمهور أهل السنة المثبتة للقدر يقولون إن العبد فاعل حقيقة، وأن له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية، وهم لا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية، بل يقرون بما دل عليه العقل من أن الله يخلق

---

(١) سورة المرسلات: ٢٠-٢٣ .

(٢) سورة فصلت: ٩-١٢ .

السحاب، بالرياح وينزل الماء، من السحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون إن قوى الطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها، بل يقرون أن لها تأثيراً حقيقياً كتأثير الأسباب في مسبباتها، والله سبحانه خالق السبب والمسبب" انتهى.

ولما سئل الإمام أحمد عن القدر قال: "القدر قدرة الرحمن" واستحسن ابن عقيل هذه الكلمة، وقال إن الإمام أحمد شفى القلوب بهذه الكلمة المختصرة، وأخذها العلامة ابن القيم فقال:

فحقيقة القدر الذي حار الورى في شأنه هو قدرة الرحمن[1]

*****

(١) انظر قصيدته القيّمة المسماة بالكافية الشافية وشرحها العظيم للعلامة الشيخ أحمد بن عيسى المسمى «شرح قصيدة ابن القيم» وهي من طبع المكتب الإسلامي.

كتابة المقادير

ثبت في الكتاب والسنة كتابة المقادير كقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾(١) وقوله: ﴿مَا أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٣) وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: "**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**" وحديث: "**أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فجرى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**" وإننا عندما نقرأ أو نسمع ما ثبت عن الله ورسوله في كتابه المقادير يجب أن نفهم بأن هذه الكتابة هي من عالم الغيب، فلا ينبغي أن نقيسها على الكتابة التي نكتبها بأيدينا، ولا على القلم الذي نكتب به، بل هي عبارة عن سبق علم الله بالأشياء قبل وقوعها، فإنه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون كيف يكون، فهي بمثابة المكتوب المضبوط في علم الله، عبر عنها سبحانه بالكيابة كما يقول الرجل لصاحبه حاجتك مكتوبة في صدري إذا أراد الاعتناء بها، على أن من طبيعة الإنسان النسيان، وبه سمي إنساناً، قيل من أجل نسيه، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(٤) وأنشدوا:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ... وما القلب إلا أنه يتقلب

وقيل من أجل أنه يأنس بغيره لأنه اجتماعي بالطبع، والله سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم، وما كان ربك نسياً، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وكتابته

---

(١) سورة التوبة: ٥١ .
(٢) سورة الحديد: ٢٢ .
(٣) سورة الأنعام: ٥٩ .
(٤) سورة طه: ١١٥ .

للأشياء إشارة إلى علمه بسائر المعلومات، لا تخفى عليه خافية من أمر خلقه، فهي كالمكتوب المضبوط في علمه؛ إذ ليس عندنا وصف الكتابة ولا القلم المكتوب به ولا المكتوب فيه، وقد اخترع هذا المخلوق بصنعته آلة تكتب كل ما تسمعه من الكلام بدون يد ولا مداد ولا قلم، فتسجل جميع ما تسمعه من الكلام، وأهلها نائمون على فرشهم كما هي معروفة وموجودة في دور الإذاعات،، ومثله الآلة التي اخترعوها لإحصاء حساب الخارج من مصاريف الماء والكهرباء بما يسمونه العداد، فيكتب كل ما يخرج بدون قلم ولا مداد، وأهله غائبون عنه، وهي صنعة مخلوق فما بالك بالخالق القادر على كل شيء، والفعال لما يريد، إذا أراد أمراً قال له كن فيكون، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وإنما ذكرت هذا لتقريب الأذهان إلى الإذعان بالإيمان بالقرآن فهو سبحانه يعلم بالمصيبة قبل وقوعها. وعلمه سبحانه بها ليس هو الذي أوقع المصاب في المصيبة، وإنما وقعت بالأسباب المترتبة على وقوعها، فإن كان وقوعها بسبب تقصير من الشخص بإهمال الأسباب والوسائل التي تقيه عن الوقوع فيها ويأمره دينه باستعمالها فإنه ملام على تقصيره في حماية نفسه وعدم استعماله للأسباب الطبيعية التي تحفظه ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] وإن كان لا طاقة له بدفع هذه المصيبة فإنه معذور ويلجأ إلى قوله "قدر الله وما شاء فعل" والنبي ﷺ في الحديث الصحيح قال: "**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان**". وقد كان الأنبياء يستعلمون الأسباب والوسائل التي تحفظهم من عدوهم مع أنهم مؤيدون بالوحي والحفظ من الله، وقد ظاهر النبي ﷺ في الحرب

(١) سورة الشورى: ٣٠ .

بين درعين، ولما كانت وقعة أحد أنزل ﷺ الناس منازلهم تجاه عدوهم، وأنزل عبد الله ابن جبير بمن معه بفم الشعب، وقال لهم: "**الزموا مكانكم هذا ولا تبرحوا عنه حتى لو رأيتم الطير تخطفنا فلا تنصرونا أو رأيتمونا نغنم فلا تشركونا**" وكانت الغلبة أول النهار للنبي ﷺ وأصحابه حتى كسروا للمشركين سبعة ألوية أو تسعة فلما انهزم المشركون أخذت الأسلحة والأمتعة تتساقط من رواحلهم ودب الناس في أخذها فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة الغنيمة. فذكرهم أميرهم قول رسول الله ﷺ لهم فعصوه ودبوا مع الناس في الغنيمة فدخلت خيل المشركين من ذلك الشعب فقتلوا سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ وشجوا رأس رسول الله ﷺ وكسروا رباعيته ودلوه في حفرة ظنوه قتيلاً.

وبعدها أخذ الصحابة يتفكرون في سبب هذه الهزيمة لظنهم أنهم أصحاب رسول الله ﷺ وحزبه، وأنهم لن يغلبوا أبداً من أجل إيمانهم فأنزل الله ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾[1] أي حصلت الهزيمة عليكم بسبب تقصيركم في حمايتكم وعصيانكم أمر رسول الله ﷺ وأمر أميركم.

لهذا كانوا بعد ذلك أشد الناس احتفالاً بالأسباب لأن الله ربط الأسباب بمسبباتها ورسول الله ﷺ سيد المتوكلين ظاهر في الحرب بين درعين، ومر على حائط مائل فأسرع السير، فقيل له في ذلك فقال: "**أخشى موت الفجاءة**" وقدم رجل مجذوم مهاجراً فرده رسول الله ﷺ ومنعه من دخول البلد وقال له: "**ارجع فقد بايعناك**" وقال: "**لا يورد ممرض على مصح**". وفي القرآن المنزل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾[2] ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾[3] كل هذه من اتقاء الأسباب التي كان يستعملها رسول الله ﷺ مع قوة توكله على ربه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٥ .
(٢) سورة النساء: ٧١ .
(٣) سورة الأنفال: ٦٠ .

وهنا حديث يجادل به أهل الجدل من أهل القدر. وهو في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **"التقى آدم وموسى فقال موسى أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وعلمك أسماء كل شيء، فبما أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم: أنت موسى رسول الله، وكلمك الله تكليماً، وقد قرأت التوراة، أفلا وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى وذلك قبل أن أخلق بأربعين عاماً؟ قال: بلى. قال: فلم تلومني على أمر قدر، الله علي"** قال فحج آدم موسى.

وهذا الحديث من مشكل الآثار، وقد ألحق به ابن حجر في فتح الباري عدد إشكالات كثيرة. أهمها: أنه مخالف لنص القرآن في قصة آدم في قوله ﴿**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ**﴾[1] وفي قوله: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**﴾[2] فلم يحتج آدم على ربه بكتابة المقادير، بل اعترف بذنبه، ولجأ بالتوبة إلى ربه.

ومنها أنه يقوي مذهب الجبر المخالف للكتاب والسنة وإجماع الصحابة وسلف الأمة. ثم هذا اللقاء هل هو بالأرواح في الدنيا؟ أم هو يوم القيامة حين يبعث الناس من قبورهم وتسقط عنهم التكاليف الشرعية؟ إلى غير ذلك مما ذكر. ج١١ ص ٤٠٦ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة الاحتجاج بالقدر:

"قد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر السابق على نفي الملام على الذنب ثم صاروا لأجل هذا الظن ثلاثة أحزاب: فريق كذبوا بهذا الحديث لأنه من المعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما جاءت به الرسل، ولا ريب أنه يمتنع أن يكون هذا مراد الحديث ويجب تنزيه النبي ﷺ بل وجميع الأنبياء وأتباع الأنبياء أن يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله.

وفريق تأولوه بتأويلات معلومة الفساد. كقولهم: إنما حجه لأنه كان أباه والابن لا يلوم أباه. وقول بعضهم إن الملام كان بعد التوبة وهو لا معنى له. وقول بعضهم إن هذا تختلف فيه دار الدنيا ودار الآخرة.

---

(١) سورة طه: ١٢١ .

(٢) سورة الأعراف: ٢٣ .

وفريق ثالث جعلوه عمدة في سقوط الملام عن المخالفين لأمر الله ورسوله فالواحد من هؤلاء إذا أذنب أخذ يحتج بالقدر ولو أذنب غيره أو ظلمه لم يعذره وهؤلاء هم الظالمون المعتدون[1].

قال: وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر، وقد علم أن إبليس هو الذي أوقعه في الذنب حيث زين له الأكل من الشجرة التي نهي عنها ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2] فتاب آدم من الذنب واستغفر، فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً له عنه ربه لاحتج به ولم يتب إلى ربه ويستغفر من ذنبه" انتهى[3].

وقال الخطابي رحمه الله: "قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر أنه الإجبار والقهر للعبد على فعل ما قدره الله وقضاه ويتوهمون أن قول النبي: "**حج آدم موسى**". من هذا القبيل وليس الأمر كذلك، وإنما معناه الإخبار عن تقديم علم الله بما يكون من أفعال الناس واكتسابهم وملابستهم للخطايا عن قصد وتعمد وتقديم إرادة واختيار منهم لفعلها، والحجة إنما تلزمهم بها، واللائمة إنما تلحقهم عليها من أجل فعلهم لها بالاختيار.

وإنما موضع الحجة لآدم على موسى أن الله سبحانه قد علم من آدم أنه يتناول أكل الشجرة بداعي شهوته ورغبته واختياره وتزيين الشيطان له، فكيف يمكن أن يرد علم الله فيه" انتهى.

وأما الحديث الثاني الذي يحتج به القدرية من أمثال هؤلاء فهو في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثني رسول الله وهو الصادق الصدوق "**أن**

(١) انظر: رسالة الاحتجاج بالقدر ضمن مجموع الفتاوى (٨/٣٠٤-٣٠٥) .
(٢) سورة الأعراف: ٢٣ .
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٣٢١-٣٢٢) .

أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي نفس محمد بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها".

إن هذا الحديث كثيراً ما يجادل به الجهلة من خاصة الشباب الذين لم يعرفوا حقيقة القدر لظنهم أنهم مجبورون على أفعالهم الخيرية والشرية، فيذهب فهمهم إلى أن بعض الناس مكتوب لهم السعادة وهم في بطون أمهاتهم مهما عملوا من عمل، وآخرون مكتوب لهم الشقاوة مهما عملوا من عمل. فيظنون أن هذا القدر المكتوب هو عبارة عن الجبر وسلب الاختيار.

والتحقيق أن الكتابة نوعان: كتابة هي عبارة عن سبق علم الله بالأشياء قبل وقوعها، وأن الله يعلم أحوال خلقه وما هم عاملون وهم في بطون أمهاتهم، فهذه لا تتبدل ولا تتغير لها وتسمى كتابة الأزل.

وعلمه سبحانه لا يتعلق به إجبارهم على فعل الخير أو الشر بل هم عاملون لأنفسهم مختارون لأعمالهم الصالحة السيئة فهي كسبهم، ويترتب الجزاء على ذلك **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾**(١).

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

والقرآن مملوء بتعليق الجزاء على العمل، وأن كل امرئ مجازى بما عمل، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ولا نسبة عمله إلى القدر، وحجته به داحضة عند ربه.

---

(١) سورة فصلت: ٤٦ .

(٢) سورة التوبة: ١٠٥ .

وأما الكتابة التي بيد المَلَك كما يفيده الحديث فإنه يقع فيها التبديل والتغيير بإذن الله وبمقتضى سنة الله في الأسباب التي رتبها الله لدفع القدر والقضاء ورفعه، فإن الله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وأما قوله: "**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**".

فمعنى سبق الكتاب إشارة إلى سبق علم الله بخاتمة حياة كل إنسان، وذلك أن الرجل يولد مؤمناً بين أبوين مؤمنين فهو يؤمن بالله ويحافظ على فرائض الله من صلاته وصيامه وسائر واجباته ويجتنب المحرمات والمنكرات ويسير على هذه الطريقة المستقيمة غالب عمره. ثم يطرأ عليه الإلحاد وفساد الاعتقاد فيكذب بالقرآن ويكذب بالرسول فيرتد عن دينه فيموت على سوء الخاتمة فيدخل النار بسبب كفره وإلحاده الذي هو خاتمة حياته لأن العمر بآخره، وملاك الأمر خواتمه، وليس سبق الكتاب الذي هو عبارة عن سبق علم الله بتطور حالة هذا الشخص هي التي حملته على الردة وعلى سوء الخاتمة، وإنما وقعت بفعله واختياره لنفسه ﴿**فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا**﴾[1] وقد حكى الله عن الغلام الذي قتله الخضر فقال: ﴿**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**﴾[2].

وأما الذي يعمل بعمل أهل النار فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. فهو رجل يولد كافراً ويعيش كافراً حتى إذا كان في آخر عمره تاب إلى ربه واستغفر من ذنبه وأسلم فحسن إسلامه فصار يحافظ على واجباته من صلاته وصيامه وسائر عباداته حتى مات على ذلك. يقول الله: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾[3].

---

(١) سورة فاطر: ٣٩ .
(٢) سورة الكهف: ٨٠-٨١ .
(٣) سورة الأنعام: ١٢٢ .

وهذه الآية نزلت في الكافر يسلم وأنه في حالة كفره كالميت وكالذي في الظلمات فلما أسلم صار حياً وخرج من الظلمات إلى النور ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾(١).

وفي وقعة أحد جاء الأصيرم إلى النبي ﷺ وكان يقاتل مع المشركين أول النهار فأسلم وأخذ يقاتل مع النبي ﷺ فقتل شهيداً فقال رسول الله: "**عمل قليلا وأجر كثيراً**".

وفي حديث أبي سعيد مرفوعاً "**إن الرجل يولد مؤمناً ويعيش مؤمناً ثم يموت كافراً وإن الرجل يولد كافراً ويعيش كافراً ثم يموت مؤمناً**" رواه الإمام أحمد لأن العمر بآخره وملاك الأمر خواتمه.

وهذا الكفر وهذا الإيمان إنما فعله باختياره ورغبته، ومن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً، ولهذا يقول الله: ﴿**قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ**﴾(٢).

والله سبحانه خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وخلق الإنسان وخلق له السمع والبصر والعقل ليعرف بها المنافع والمضار، وكما خلق الإنسان فقد خلق الشيطان ليمتحن بذلك صحة من يطيع ربه ممن يطيع الشيطان، يقول الله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**﴾(٣) فأخبر سبحانه أن الحكمة في خلق إبليس هو اختبار الناس وامتحانهم

(١) سورة البقرة: ٢٥٧ .
(٢) سورة الأنعام: ١٠٤ .
(٣) سورة سبأ: ٢٠-٢١ .

على صحة إيمانهم ليعلم سبحانه من يطيع ربه ويعمل لآخرته وهو مؤمن ممن هو شاك مرتاب في أمر آخرته، والله سبحانه ينادي عباده يوم القيامة عند عرض صحائف الأعمال على سبيل الإعذار والإنذار: (**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غيرذلك فلا يلومن إلا نفسه**) ولهذا لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم من نفسه أنه مستحق لدخولها بعمله ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[1].

*****

(١) سورة الملك: ١٠-١١ .

بطلان الاحتجاج بالقَدَر

إن طريقة أهل السنة في القضاء والقدر هي الإيمان به، وإن الله على كل شيء قدير، وفعّال لما يريد، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهم يؤمنون بالقضاء والقدر ولا يحتجون به، فالمحتج به حجته داحضة عند ربه.

والقضاء والقدر الذي أوجب الله الإيمان به ليس معناه أن الله يلزم الناس بما قدره وقضاه عليهم، فقد جعل الله لهذه المقادير أسباباً تدفعها وترفعها من الدعاء والصدقة والأدوية وأخذ الحذر واستعمال الحزم وفعل أولي العزم وسائر ما يلزم؛ إذ الكل من قضاء الله وقدره حتى العجز والكيس. وفي دعاء القنوت "**اللهم اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت وبارك لنا فيما أعطيت وقنا واصرف عنا شر ما قضيت**"فلولا أن الدعاء يدفع شر القدر والقضاء لما شرعه النبي ﷺ لأمته. ويدل له ما روى الترمذي عن سلمان أن النبي ﷺ قال: "**لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الصدقة لتدفع ميتة السوء**" فأخبر النبي ﷺ أن القدر والقضاء يندفع بهذه الأسباب التي شرعها الله لدفعه ورفعه ،فلا يكون لزاماً على الناس من ذلك كتابة الملَك على الجنين وهو في بطن أمه حين يكتب أجله وعمله وشقي أو سعيد، فإن هذه الكتابة يعتريها التبديل بإذن الله، فإن الله يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب.

وسمع من دعاء عمر بن الخطاب "اللهم إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقياً فامحني وأثبتني سعيداً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب".

إن من الناس من يكسل ويعرض عن الدعاء اتكالاً منه على القدر والقضاء ويقول: إن كان هذا الأمر كتب لي فسيأتيني دعوت أو لم أدع. وهذا غلط وخطأ، فإن الدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة، ولم يشرع الله الدعاء إلا ليثيب الداعي على دعائه ويستجيب له، والدعاء حبيب الله، فليس شيء أكرم على الله من الدعاء، وهو

سلاح المؤمن. ومن ذلك بعض الأشياء المحبوبة المطلوبة يقدر الله حصولها والفوز بها عن طرق الدعاء ولا تحصل بدونه فإذا دعا ربه حصلت له، وإن لم يدع لم تحصل، وكل هذه بقضاء الله وقدره.

أما القائم بعلم الله فإنه لا يبدل ولا يغير، فإن الله يعلم أنه سيقع كذا وكذا في وقت كذا وكذا، فهذا العلم لا تبديل فيه ولا تغيير بخلاف الكتابة التي بأيدي الملائكة والتي في اللوح المحفوظ فإنها تتبدل وتتغير بحسب سنة الله في تقدير ما يدفعها ويرفعها كما قال عمر: "نفر من قدر الله إلى قدر الله".

وإنما حكى الله الاحتجاج بالقدر عن المشركين حيث قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[1] فأخبر الله بأنه ليس من شأن الرب إجبار الشخص على عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه لكون ذلك كله موكولاً إلى فعل الشخص نفسه واختياره لها ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2] ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾[3].

وإنما وظيفة الرسل تبليغ الهداية والدعوة إلى العباد ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[4] ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[5].

فالمحتجون بالقدر يسمون جبرية فقول بعضهم" لا يغني حذر عن قدر" ليس على إطلاقه، فإنه قد يندفع القدر بالحذر، وقد أرشد القرآن إليه لما يترتب عليه من النفع ودفع الضر. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[6] كما قال

(١) سورة النحل: ٣٥ .
(٢) سورة الكهف: ٢٩ .
(٣) سورة فاطر: ٣٩ .
(٤) سورة النحل: ٣٦ .
(٥) سورة الشورى: ٧ .
(٦) سورة النساء: ٧١ .

عمر "نفر من قدر الله إلى قدر الله" في قضية امتناع عمر والصحابة عن دخول الشام لما وقع بها الطاعون فنادى في الناس: إني مصبح على ظهر. فتأهبوا للرجوع فتلقاه أبو عبيدة بن الجراح فقال له: أفراراً من قدر الله يا عمر؟ فقال: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله.

وقد أرشد القرآن إلى أخذ الحذر الذي من لوازمه عدم الركون أو الركود إلى القدر فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1] ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2] لأن الله سبحانه ربط الأسباب بالمسببات فما أذنب القضاء والقدر ولكن الناس يذنبون ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[3] وقد قيل - والشعر للعلامة ابن القيم رحمه الله.

وعند مراد الله تفنى كميت ... وعند مراد النفس تسدي وتلحم
وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا ... ظهيراً على الرحمن للجبر تزعم
تنزه منك النفس عن سوء فعلها ... وتعتب أقدار الإله وتظلم
وتفهم من قول الرسول خلاف ما ... أراد لأن القلب منك معجم
بطيء عن الطاعات أسرع للخنا ... من السيل في مجراه لا يتقسم
وتزعم مع هذا بأنك عارف ... كذبت يقيناً في الذي أنت تزعم
وما أنت إلا جاهل ثم ظالم ... وإنك بين الجاهلين مقدم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن التوكل إنما يكون مع الأخذ بالأسباب، وإن ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، والإنسان مأمور بالأسباب، يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وقال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[4] وقال

(١) سورة النساء: ٧١ .
(٢) سورة الأنفال: ٦٠ .
(٣) سورة النساء: ٧٩ .
(٤) سورة الملك: ١٥ .

لنبيه لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾[1] وقال لنبيه موسى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[2] انتهى.

فالرسل دينهم الأمر والعمل مع إيمانهم بالقضاء والقدر، فالأنبياء وأتباعهم يحاربون القدر بالقدر، ويحكمون الأمر على القدر، ويقولون إن القدر لا يمنع العمل ولا يجب الاتكال عليه، والنبي ﷺ قال: "**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**".

فهذه سيرة الرسول ﷺ وأصحابه وعلماء السنة والجماعة يعملون بالحزم وفعل أولي العزم فعل من يرى أنه لا ينجيه ويسعده سوى عمله ثم يتوكلون على ربهم.

ولما أتي إلى عمر برجل قد سرق فقال: ما حملك على السرقة؟ قال: حملني عليها قضاء الله وقدره، فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره، فأمر به فقطعت يده.

فالاحتجاج بالقدر لا يقبله أي إنسان فيما يقع عليه أو على أهله وماله، فلو تعدى رجل على آخر فضربه أو أخذ ماله وانتهك محارمه فعند سؤاله عن أفعاله قال: حملني عليها قضاء الله وقدره فإنه لا يقبل منه ذلك فما بالك بالاحتجاج به على الله في ترك طاعاته وارتكاب محرماته وما أذنب القضاء والقدر ولكنهم المذنبون، ولما سأل الصحابة النبي ﷺ عن القدر، وهل يجوز لهم من أجله ترك العمل؟ قال لهم رسول الله: "**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**".ولهذا قال الصحابة كنا بعد علمنا بالقضاء والقدر أشد اهتماماً منا بالعمل، وقالوا: "يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقي نسترقيها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: "**هي من قدر الله، إن كان أحدكم نافعاً أخاه فليفعل**" لأن الله سبحانه خلق الأسباب والمسببات، وجعل هذا سبباً لهذا فقال: "**تداووا، ولا تداووا بحرام**". وقال: "**إن الله لم ينزل من داء إلا وله دواء علمه من علمه وجهله من جهله إلا الموت**" وقد قيل:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب

---

(١) سورة هود: ٨١ .

(٢) سورة الدخان: ٢٣ .

أضرّ ما ابْتُلي به الشخص
هوَ العَجز اتكالاً على القدَر

إن أكثر الناس يجعل عجزه توكلاً وفجوره قضاء وقدراً، فمتى نصحته عن ترك الصلاة أو نهيته عن شرب المسكرات اعتذر إليك بأنه مكتوب علي، فهو كما قيل: عند ترك الطاعات قدري، وعند ارتكاب الكفر والمنكرات جبري.

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من العجز والكسل، ويقال: نكح العجز التواني فولد بينهما الحرمان.

فمن نوع العجز الذميم الإعراض عن استعمال الأدوية المجربة لدفع البلاء ورفع الوباء توكلاً منهم بزعمهم على الله.

والله سبحانه خلق الناس وخلق لهم جميع ما يحتاجون إليه من المطاعم والمشارب واللباس والأدوية وغير ذلك.

فكل العقاقير والأدوية التي يستعملها الأطباء لعلاج المرضى وللوقاية من البلاء والوباء هي بالحقيقة من مخلوقات الله التي أنبتها في أرضه رحمة منه لعباده بإيصال نفعها إليهم وخص كل نوع بمرض يزاوله ويشفيه.

فالمرض هو من قدر الله، والدواء الذي يعالج به ليشفيه هو من قدر الله أيضاً، فهم يسلطون القدر على القدر، ويتقون القدر بالقدر، فيشربون الدواء الكريه المر خوفاً من الوقوع في الضر، ويرتجزون فيقولون:

نحن في دار بليات نعالج آفاتاً بآفات

وقد ركب الله في الإنسان السمع والبصر والعقل ليتم بذلك استعداده لتناول منافعه واستعمالها في سبيل وقاية صحته وحفظ بنيته، وكان من هدي النبي ﷺ فعل التداوي في نفسه والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه وقول: "**عباد الله تداووا فإن الله لم ينزل من داء إلا وأنزل له شفاء**" فاستعمال الأدوية المباحة

والوقاية النافعة هي من تحقيق التوحيد كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقال: "إن الطعن في الأسباب قدح في الشرع والإعراض عن الأسباب نقص في العقل لأن كل ما شرعه رسول الله لأمته وأمر به فإنه من الدين الذي يجب اتباعه".

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وما ربك بظلام للعبيد.

وقد أمر الله نبيه بأن يقول: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

*****

(١) سورة النمل: ٩٢،٩٣ .

شبهَة النصَارَى على المسلمينَ في عقيدة القضاء والقدَر

عقيدة القضاء والقدر قد كثر من النصارى الخلط والخبط في الطعن على الإسلام والمسلمين فيها لظنهم فيها الظنون الكاذبة حيث أخرجوها عن حدود ما أنزل الله وعن حقيقة ما يؤمن به المؤمنون.

وقالوا إن المسلمين في فقر وفاقة وفي تأخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الأمم من أجل اعتقادهم بالقضاء والقدر.

لظنهم أن المسلمين كانوا على عقيدة الجبر القائلين إن الإنسان لا يعدو أن يكون مجبوراً محضاً في جميع أفعاله.

وتوهموا أن المسلمين يرون أنفسهم كالرشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيف تميل، وأنه لا حول لهم ولا قوة ولا اختيار، وإنما ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة، فلا رب أن تتعطل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، ويزول عن خواطرهم داعية السعي والكسب والحرفة، ثم يتحولون من عالم الوجود إلى عالم العدم، ويسلبون العزة والقوة، ويحكم فيهم الضعف والضعة، ورموا المسلمين من أجلها بصفات المذلة وسيما الهوان.

ذلك ظن الذين كفروا في المسلمين، وتبعهم على ظنهم هذا ضعفاء العقول من العرب الذين أولعوا بتقليد النصارى، وتصديقهم فيما يقولون، فهم يلفظون لفظهم كلما لفظوا، ويتبعون ظلهم أينما انبعثوا.

وأقول: إنهم افتروا الكذب على الله وعلى عباد الله فيما يقولون فإنه لا يوجد مسلم صحيح الإسلام في هذا الزمان يعتقد مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب القدرة والاختيار عن نفسه أو عن غيره، ولو وجد فإنهم يلحقونه بالمجانين.

وكل الطوائف من المسلمين من زمن الصحابة إلى زماننا هذا يعتقدون للإنسان قدرة واختياراً وأن قدرته تؤثر في مقدورها حسب تأثير القوى والطبائع بما يسمى الكسب والاختيار وهو مناط التكليف الذي عليه مدار الثواب والعقاب والفوز بالجنة والنجاة من النار، يقول الله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١).

فهم يعتقدون أنهم محاسبون على ما وهبهم الله من القوى والاختيار ومطالبون بامتثال جميع الأوامر والنواهي الربانية إن أحسنوا فلأنفسهم وإن أساءوا فعليها.

فهم يلومون ويذمون كل من يحتج بالقدر في ترك الأمر وارتكاب النهي، وأنه لا حجة له في ذلك بل حجته داحضة عند ربه.

وقد أمر رسول الله ﷺ أمته بأن يأخذوا بالكيس والحزم وفعل أولي العزم في جميع أعمالهم من أمور دينهم ودنياهم، وأن يأخذوا حذرهم ويستعدوا بالقوة لعدوهم وبما استطاعوا من الكيد والقوة، ونهى عن الكسل والعجز، وأخبر أن الله يلوم عليه، كما أرشدهم ودلهم على الدواء عند الحاجة إليه وقال: "إن الله لم ينزل من داء" إلا وأنزل له دواء وقال: "تداووا، ولا تداووا بحرام".

ونهى أشد النهي عن أن يتكلوا على القضاء والقدر في شيء من أعمالهم بل قال: ا"عملوا فكل ميسر لما خلق له" وهذا هو مناط التكليف الشرعي، وبه تتم الحكمة والعدل والمصلحة، وعليه مدار عقيدة المسلمين، وقد قيل: العاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

أما عقيدة الجبر كالذين يحيلون جميع تصرفاتهم في ترك واجباتهم أو ارتكاب محرماتهم إلى القضاء والقدر فهذا الاعتقاد قد انقرض أهله من سنين طويلة. غير أنه في هذا الزمان نشأ طائفة من شباب العرب الماردين والمارقين عن الدين يحتجون بالقدر في ترك الواجبات وارتكاب المنكرات وشرب المسكرات، ومتى

(١) سورة التوبة: ١٠٥ .

عذلته أو نهيته عن سوء عمله قال هذا أمر كتبه الله علي فيجعلون عجزهم توكلاً، وكفرهم وفجورهم قضاء وقدراً.

وسمع من بعض الملاحدة أنه يقول: الذنب ذنب الذي خلق إبليس، ليس ذنبي، وهؤلاء يعدهم المسلمون ملاحدة ليسوا من المسلمين.

إن اعتقاد القضاء والقدر الصحيح تنجم عنه الأفعال الصحيحة وتتبعه الصفات الحميدة من بسط اليد في النفقة والصدقة والجرأة والإقدام وخلق الشجاعة، ويبعث على اقتحام المهالك في سبيل الحق وحماية الدين والوطن، ويلهج أهله بقولهم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] إن هذا الاعتقاد يطبع في النفوس الثبات على المكارم وتحمل المكاره ومقارعة الأهوال الشديدة بجأش ثابت، ويحلي الأنفس بحلية الجود والسخاء؛ لاعتقاده أن ما أنفقه فإن الله سيخلفه كما يحملها على التضحية بالروح في سبيل الحق والتخلي عن الدنيا وزينتها.

فالمسلم الذي يعتقد هذا الاعتقاد وأن نواصي الخلق بيد رب العباد يتصرف فيها كيف يشاء وأن لله ما أخذ، ولله ما أعطى، وأن الدنيا دار متاع يتمتع بها صاحبها برهة من الزمن ثم يزول عنها، وأن الآخرة هي دار القرار، وأن كل امرئ مجازى بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فهذا الاعتقاد متى رسخ في قلب المؤمن فإنه لا يرهب الموت أبداً، ولا يجزع منه إذا نزل به لاعتقاده أن له داراً هي أبقى وأرقى من دار الدنيا وعيشاً ونعيماً هو أرغد وأنعم من عيش الدنيا فإنه لن يجزع من فراق الدنيا والحالة هذه.

ثم إن هذا الموت ليس بفناء أبداً لكنه انتقال من دار إلى دار أخرى ليجزى فيها الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، فلا يجزع من الموت

(١) سورة التوبة: ٥١ .

إلا الذي لم يقدم لآخرته خيراً، ويقول ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، فهذا يجتمع عليه عند فراقه للدنيا سكرة الموت وحسرة الفوت وهول المطلع، فيندم حيث لا ينفعه الندم، ويقول يا ليتني قدمت لحياتي.

لقد اندفع المسلمون بصحة عقيدتهم في أوائل نشاطهم في القرن الأول والثاني والثالث بشجاعة باسلة وقلوب ثابتة وإيمان راسخ فاندفعوا إلى الممالك البعيدة في مشارق الأرض ومغاربها وبأيديهم القرآن يفتحون به ويسودون ويدعون الناس إلى العمل به، فهو السبب الأعظم الذي به نهضوا وفتحوا وسادوا وبلغوا المبالغ كلها من المجد والرقي حتى استطاعوا أن يثلوا عروش كسرى وقيصر في أقصر مدة من الزمان وهم أرقى الأمم حضارة وقوة ونظاماً وعدداً وعدة.

فما كان خوضهم لهذه المعارك التي هي غاية في اقتحام المهالك إلا من أجل إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح، وأنها لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فهذا الاعتقاد هو الذي ثبت أقدام المسلمين مع قلتهم وضعفهم أمام جيوش أعدائهم التي يغص بها الفضاء ،وتعج من كثافتها الأرض والسماء، فكشفوهم بقوة الإيمان ثم نشروا التوحيد والصلاح والسعادة في سائر البلدان، وكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾(١).

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

حرر في ٢٠ ربيع *الثاني* سنة ١٣٩٦ هـ.

(١) سورة الحج: ٤١ .